في ذكرى ثورة الدستور 1948م (3)

الذي خانوا وتآمروا.. والذين قاتلوا الغزاة!

وصل بنا الحديث في الأسبوع الماضي إلى الفترة التي انعقد فيها الصلح بين العثمانيين والإمام المطهر بن شرف الدين، وقبل أن نواصل سرد مواقف القوى اليمنية تجاه أحداث تلك الفترة؛ نجد أنه من الضروري إعادة التنبيه أن الهدف من هذه الكلمات ليس الحديث عن الظروف والملابسات التي صاحب مجيء المماليك والعثمانيين إلى اليمن وتقويم مواقف القوى المحلية منهم: دعماً أو معارضة.. وليس الهدف -أيضاً- تحليل تلك المواقف وبيان صوابها من عدمها، فالجميع -في قناعتنا- ارتكب أخطاء شنيعة مع تعاملهم مع بعضهم بعضاً.. وفي حق اليمنيين البسطاء الذين عانوا من مظالم وتعسفات حكامهم المحليين كما عانوا من مظالم وتعسفات المماليك والعثمانيين.. فأولئك السلاطين والأئمة -أو معظمهم- كان يغلب عليهم جنون السلطة والاستئثار بها، والمبالغة في اللجوء إلى السيف، والرغبة في الاستقلال بحكم المقاطعات والمناطق التي تحت أيديهم بصرف النظر عن المصالح العامة أو الدين أو المذهب أو السلالة.. ولذلك تقلبوا في ولاءاتهم المتناقضة وقاتلوا بعضهم بعضاً وتآمروا وخانوا دون حدود..

ناصر يحيى

وأما الولاة العثمانيون والمماليك -إلا القليل- فقد كانوا أنموذجاً لحكم العسكر والجبروت فأضروا بأنفسهم وباليمنيين حتى ولو أخذنا في الاعتبار أنهم جاؤوا لحماية السواحل اليمنية والحجازية من الغزو البرتغالي.. فقد كانوا -أخلاقياً- أقل من تلك المهمة النبيلة.. وقد دفع الجميع ثمن تلك المواقف حيث كلفوا اليمنيين أثماناً باهظة من الدماء والفوضى باسم الأهداف التي رفعها كل طرف تبريراً لحروبه أو تمرده! ونرجو أن يكون هذا الكلام واضحاً، ولذلك فسيكون التركيز -غالباً- على مواقف وأدوار الأئمة الذين زعم القاضي إبراهيم الوزير في مقالاته أنهم هم وحدهم الذين واجهوا التدخل والغزو الخارجي بسبب تميزهم المذهبي الذي قام عليه حكمهم وسلطانهم.

استمرار الخيانة والتآمر

وصلنا في الأسبوع الماضي إلى المرحلة الزمنية التي تم فيها عقد الصلح بين العثمانيين والإمام المطهر بن شرف الدين بعد معارك وحروب شرسة جرت بينهم بعد أن انقلب عليهم! ونواصل ذكر المواقف بتركيز على النحو التالي:

1 - اختار الأشراف من آل المؤيد (أحمد بن الحسين) إماماً جديداً في صعدة بناء على طلب من الإمام السابق (يحيى شرف الدين) الذي ظل غير مقتنع بابنه المطهر رغم الدور العسكري الذي قام به ضد العثمانيين، لكن الأمر لم يستقر بالإمام الجديد في صعدة فسرعان ماهاجمه أشراف(!) الجوف وطردوه منها؛ فلجأ إلى العثمانيين في صنعاء للاستنجاد بهم فرحبوا بالطلب وزحفوا إلى (صعدة) واستولوا عليها(!) بسهولة بعد هروب الأشراف قبل وصولهم! ثم ثار الخلاف بين الإمام ووالي صعدة العثماني فجاء جيش آخر واستعاد (صعدة) من الإمام الذي لجأ بدوره إلى المطهر فعينه حاكماً على حصن قرب حجة!

2 - بعد وفاة المطهر بن شرف الدين؛ استقل أبناؤه بحكم المناطق التي ولاهم أبوهم عليها وتنازعوا حول السلطة والنفوذ وتوسيع الممتلكات، واشتعلت بينهم حروب عنيفة حتى لجأ بعضهم إلى العثمانيين للاستعانة بهم ضد بعضهم بعضاً (من شابه أباه وجده فما ظلم!).

3 - عند ظهور دعوة الإمام الحسن بن علي بن داود المؤيدي في الأهنوم في عهد الوالي العثماني (مراد باشا) ومجاهرته بعداوة العثمانيين؛ غيّر (مراد باشا) موقفه المهادن للأمراء الزيديين؛ وشجعه على ذلك استعانة أبناء المطهر وباقي الأمراء بالعثمانيين ضد دعوة الإمام الجديد! (أنا والغريب على ابن عمي).

4 - بعد أن حقق الإمام الحسن المؤيدي انتصارات متوالية ضد أعدائه من العثمانيين وأبناء المطهر وبعض الحكام؛ انضم بعض أبناء المطهر إليه بعد أن تعهد لهم بإبقائهم في مراكزهم، لكن بعضهم استعان بالعثمانيين الذين ألحقوا الهزيمة بالإمام مستعينين بأغلب أبناء المطهر الذين عادوا وانقلبوا على الإمام الحسن بعدما قبض على أحدهم بعد أن اكتشف أنه يتآمر ضده للقبض عليه وتسليمه للعثمانيين!

5 - التحق (المطهر بن شويع) أحد كبار قادة المطهر بخدمة الوالي العثماني (حسن باشا) بعد أن تقلب ولاؤه كثيراً بين الأمراء الزيديين حتى نصحه محمد بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين بالدخول في خدمة العثمانيين(!) لتعويض مافاته من المناصب والثروات(!) فصار سنجقاً بمرتب كبير، وأرسله العثمانيون مع الداعي الإسماعيلي محمد بن عبدالله إلى حصن ظفار للقضاء على الأمير محمد بن ناصر مزدوج الولاء!

6 - لما ظهر الإمام القاسم بن محمد وتمرد ضد العثمانيين؛ انضم عدد من الأمراء الزيديين وخاصة من آل شرف الدين للعثمانيين ضده(!).. وكان عبدالرحيم بن عبدالرحمن بن المطهر -حاكم حجة وأقاليمها- أول من حارب الإمام القاسم وأول من أبلغ العثمانيين بالثورة! بل ذهب أبعد من ذلك ودبر مكيدة لتسليم كبار قادة القاسم إلى الأتراك لولا أنها انكشفت! (والذي لا يعرف الطب يقول: الطبيبن الطاهرين).

7 - الأمير أحمد محمد شمس الدين بن الإمام شرف الدين -حاكم كوكبان- لعب الدور الرئيسي في إخماد ثورة القاسم الأولى!

8 - الغريب أن عبدالرحيم بن عبدالرحمن بن المطهر عاد وتحالف مع الإمام القاسم ثم نكص على عقبيه وسعى للتحالف ضده مع الوالي العثماني الجديد في اليمن (جعفر باشا).. ثم اتهم الإمام بالعجز والضعف بعد أن عقد صلحاً مع العثمانيين.. لكن تم القضاء على تمرده ونفي إلى استانبول!

9- ظل آل شرف الدين (حكام كوكبان) يناهضون الإمام القاسم حتى هزموا على يد أبنائه.

عودة العثمانيين في القرن (19) م

عاد الأتراك إلى اليمن في القرن (19) الميلادي في ظروف لا تختلف كثيراً عن ظروف مجيئهم في المرة الأولى.. وكان أبرز ملامح تلك الفترة؛ الاحتلال البريطاني لعدن 1839م.. ووجود قوات تابعة لمحمد علي باشا -حاكم مصر- في مناطق تهامة وعبس ثم انسحابهم بضغط دولي، واستمرار حالة الفوضى وتنافس الأئمة على السلطة في المناطق الشمالية، الأمر الذي مهد لعودة الأتراك إلى اليمن، ويهمنا في سياق هذه السطور التركيز على الأحداث التالية:

1 - أدى التنافس بين الإمام المهدي عبدالله بن المتوكل أحمد والإمام محمد بن يحيى بن المنصور إلى لجوء الأخير إلى حسين بن علي بن حيدر -حاكم تهامة والمخلاف السليماني باسم العثمانيين- طلباً لمساعدته، ونجح الرجلان في دخول صنعاء بعد هزيمة الإمام المهدي.. ثم انقلب إمام صنعاء على حليفه (حسين بن علي) بدعوى أحقيته الشرعية في مناطق تعز والجند.. ونشبت معارك بين الطرفين انهزم فيها (حسين بن علي) قبل أن يبادر إخوانه للاستعانة بقبائل (يام)

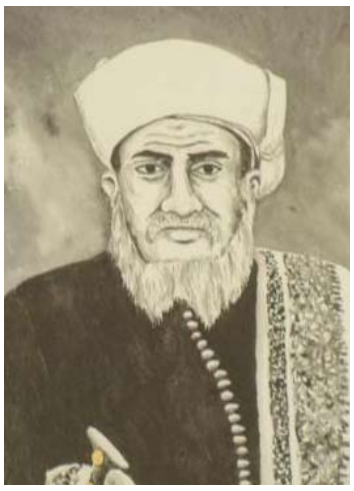

الامام يحيى

علي سعيد باشا

اليمنية وهاجموا الإمام في زبيد وهزموه فانسحب هذا إلى صنعاء، وقد دفعت تلك التطورات (حسين بن علي) -الذي كان تابعاً للأتراك- إلى الاستنجاد بالسلطان العثماني لإعادة الأمر والاستقرار بعد أن عمت الفوضى البلاد.. وشارك في طلب النجدة تجار تهامة وأعيانها بعد أن تعرضت تجارتهم للكساد وممتلكاتهم وأموالهم للنهب أثناء المعارك بين قوات الحسين التهامية وقوات الإمام.

2 - استجاب السلطان العثماني لطلب النجدة وأرسل حملة كبيرة استقبلت رسمياً في الحديدة استقبالاً طيباً.. وعندما علم إمام صنعاء (محمد بن يحيى) بوصول العثمانيين حرص على عدم انفراد خصمه (علي بن حسين) بدعمهم، وأراد أن يفوت الفرصة على منافسه في الإمامة (علي بن المهدي) إن فكر في الاستعانة بالعثمانيين.. ولهذا سارع إمام صنعاء إلى الاتصال بالعثمانيين مرحباً بقدومهم إلى اليمن، وذهب بنفسه لاستقبالهم عند وصولهم إلى المنطقة الجبلية، وصحبهم إلى صنعاء واستضافهم في قصر غمدان!

3 - نجح الإمام المنافس (علي بن المهدي) في تحريض عدد كبير من رجال القبائل ضد إمام صنعاء متهماً إياه بأنه باع اليمن وأهله للأتراك الدخلاء، وشارك أهالي صنعاء في الثورة ضد الإمام والأتراك، وانتهت الأحداث بخروج الأتراك إلى تهامة وتنصيب (علي بن المهدي) إماماً في صنعاء وأسر الإمام السابق (1849م).

4 - استمرت الفوضى والاضطراب بسبب الخلاف بين الحكام وخاصة الأئمة المتنافسين في صعدة وفي الأهنوم.. وكثرت غارات القبائل على صنعاء.. واضطرب حبل الأمان واشتاق الناس إلى حياة الهدوء والطمأنينة.. فلم يعد أمام الجميع إلا الاستنجاد بالسلطان العثماني عبدالعزيز عن طريق شريف مكة (محمد بن عون).. وشارك في ذلك كل من الإمام (علي بن المهدي) والإمام (الهادي غالب بن محمد بن يحيى) والإمام (الحسين بن المتوكل أحمد) ومعهم كثير من العلماء والرؤساء والأعيان، ورجوا السلطان أن يعينهم ببعض العساكر لإنقاذ اليمن من الفوضى والانهيار!

5 - توجهت القوات العثمانية من الحديدة إلى صنعاء.. وفي مناخة كان هناك وفد يمني جاء لاستقبالهم أرسله الإمام (علي بن المهدي) ويضم عدداً من السادة والعلماء والأعيان التقوا بقائد الحملة (أحمد مختار باشا) ودعوه إلى دخول صنعاء تنفيذاً لأوامر الباب العالي الذي استجاب لدعوتهم لتأديب العصاة والمتمردين الخارجين عن طاعة الإمام(!).. ويبرر البعض الدعوة اليمنية للأتراك بأنها كانت مقتصرة على محاربة المتمردين ثم يعودون إلى قواعدهم في تهامة.. وإن صح ذلك فهي غاية السذاجة من هذه الزعامات اليمنية؛ إذ يستدعون قوات دولة عظمى لمساعدتهم ثم يظنون أنها ستعود فوراً وكأنهم طقم عسكري أدى المطلوب وأخذ حق القات أو حق ابن هادي!

الاحتلال البريطاني لعدن

احتلت قوات بريطانية (عدن) في 1939/1/19م.. ويهمنا هنا معرفة القوى التي حاولت تحرير عدن على النحو التالي:

1 - المحاولة الأولى؛ قادها السلطان محسن العبدلي وسلطان أبين أحمد عبدالله الفضلي في 1939/11/3م (فشلت المحاولة).

2 - المحاولة الثانية قام بها السلطان أحمد محسن العبدلي والسلطان أحمد عبدالله الفضلي اللذان حرضا القبائل العربية المحاورة بعدن وقبائل العوالق للهجوم على البريطانيين في عدن في 1840/5/11م (فشلت المحاولة).

3 - المحاولة الثالثة قام بها ستة آلاف من قبائل العبادلة والفضلي في 1840/7/5م. (فشلت المحاولة).

4- المحاولة الرابعة قادها أحد علماء الصوفية (الشريف إسماعيل بن إبراهيم) في سنة 1846م.. وهو تونسي الأصل خرج من مكة بصحبة عدد من أهل الحجاز وانضم إليهم أهالي عسير ويام وتهامة، ونفذ الهجوم في 1846/9/1م (فشلت المحاولة)!

5 - ذكرت بعض المصادر التاريخية أن البريطانيين سعوا لإقامة علاقات تعاون مع الإمام محمد بن يحيى في صنعاء الذي لم يقم بأي مجهود لمقاومة احتلال عدن، ورفض دعم مقاومة الشريف إسماعيل ثم رفض نجدته بعد الهزيمة.. بل حاول التقرب مرتين من البريطانيين والتماس التوسط لدى حكومتهم لمنحه بعض المساعدات المالية ضد خصمه حسين بن علي بن حيدر مقابل إطلاق يد البريطانيين في ميناء (زيلع) على الساحل الصومالي التابع للمخا، وحاول الإمام عقد معاهدة للصلح وتبادل التجارة مع البريطانيين في عدن لكن ذلك لم يتحقق بسبب عدم حماس البريطانيين ثم عاد ثالثة وعرض على «هينس» الذي احتل عدن تعاوناً بريطانياً إمامياً لحصار المخا مقابل تنازل الإمام لبريطانيا عن تهامة بعد القضاء على خصمه حسين بن علي بن حيدر.

6 - عندما نشبت الحرب العالمية الأولى التزم الإمام يحيى حميد الدين الحياد التام، ولم يسهم في الحرب التي شنها الأتراك ضد الوجود البريطاني في عدن، وأضاع فرصة للجهاد ضد الكفار والغزاة الخارجيين وتحويل اليمن إلى مقبرة للبريطانيين الصليبيين بدلاً من أن تكون مقبرة للأتراك المسلمين!

7 - شاركت قبائل يمنية الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى في حربهم ضد البريطانيين في عدن والنواحي التسع.. وهي قبائل: قضاء القماعرة، والقبائل المحيطة بتعز وجبل صبر، وقبائل الضباب وجبل حبشي، وقبائل قضاء العدين وإب وجبلة، وقبائل الحجرية، وقبائل الحواشب، وقبائل الأصابح ويافع، وكما هو واضح فلا يوجد بين هذه القبائل أي فئات من المناطق التي كان يسيطر عليها الإمام يحيى، وحال بين قبائلها وبين مشاركتها في قتال الانجليز كما صنعت القبائل المذكورة بقيادة علي سعيد باشا.

الجميع -في قناعتنا- ارتكب أخطاء شنيعة مع تعاملهم مع بعضهم بعضاً.. وفي حق اليمنيين البسطاء الذين عانوا من مظالم وتعسفات حكامهم المحليين كما عانوا من مظالم وتعسفات المماليك والعثمانيين..

تنويه

(حدث خطأ في الأسبوع الماضي في اسم مؤلف كتاب: يوميات صنعاء والصواب: يحيى بن الحسين بن القاسم.. أما القاضي الجرافي فكتابه بعنوانه: المقتطف من تاريخ اليمن).